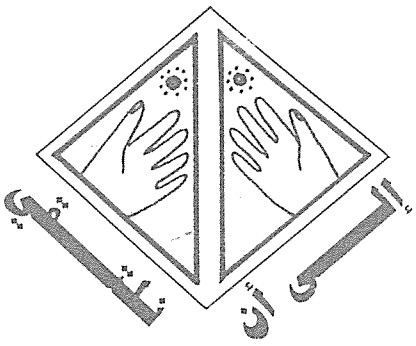

« السيد : زلزال »

لم تكن تلك هي المرة الأولى التى أتشرف فيها بلقائه ، وفي الواقع أنت لا تلتقي أبدا بالزلزال ، إنه هو الذي يجيىء ، ودائما يأتي فجأة ، ومن كل الجهات ، الأبواب والنوافذ تتحرك في وقت واحد فلا تدري أهي تفتح أم تغلق ؟ المعلقات على الحوائط ، والمدلّيات من الأسقف تهتز أو تسقط في ذات اللحظة التي تتحرك فيها المقاعد والمناضد على الأرض بما ومن عليها ؟! ولكن في كل مرة سابقة كانت الطريقة التي ألقاه فيها ، سمح لي بإجراء نوع من الحوار مع النفس، تسمح لي أو لغيري بنوع من حرية الحركة ، كأنما [الزلزال] يدعونا للإفلات من حصاره، فيبدو الأمر كله وكأنه مجرد معابثة من كبير جدا مع صغار !!

في هذه المرة كان الأمر مختلفا تماما ، كنت في طريقي إلى حجرتي في مجلة « العربي » ، فجأة وجدتني أتطوح وأنا في بداية الممر المؤدي إلى حجرة المكتب ، استندت بيدي معا إلى حائطي الممر لأحتفظ بتوازني ، رآني الجالسون في الصالة [فيما بعد قال لي أحد الجالسين وهو يصف المشهد : « بدا الأمر لأول وهلة كأنك شمشون الذي يهز المعبد »] أواصل الاهتزاز مع الحائطين ، لعل إدراكهم لمعنى ما أحسوا به وهم جلوس ، التقى بإدراكهم لمعنى ما يحدث لهذا الواقف المتصالب بين حائطين مهتزين ، فقد دوت في لحظة صرخة « زلزال » كأنما من كل من كانوا في الصالة !

في لحظة لمحت جميع الجالسين يندفعون نحو الباب ، لا أتذكر أن أحدا منهم قد رفع قامته ، اندفعوا في حركة قطيع حقيقي كأنهم يتوقّون خطرا من فوقهم سوف يؤجله قليلاً ذلك الانحناء جريت وراءهم ، قدماي تتحركان فوق أرض متحركة ، تنبعث من الأرض أصوات مكتومة وصاخبة ، كأن مئات من المحركات لمئات من الدبابات تجري تحت قشرة الأرض !

كنا في الطابق الأول ، والمسافة بيننا وبين مدخل العمارة لا تستغرق ستين ثانية ، ومع ذلك ففي هذه الثواني دهمني سؤال : ماذا يفعل أفراد أسرتي الآن ؟ وكيف يتصرفون ؟ عبر في ذهني الصغار جدا والكبار جدا ، في هذه الثواني كنت أشعر بقوة وبوضوح أن الجري عبث تماما مثل الوقوف ، فالخطر في كل مكان ، ومع ذلك لم أتوقف عن الجري في المكان ، لو أستطيع أن أجد نفسي فجأة في غير مكان ! وأشعر بقوة وبوضوح أنني كنت طوال حياتي جزءًا من المكان ، لا مكان لي خارج المكان ، مم أهرب ؟ الزلزال هو أنا ، كنت أحيانا أصنعه ، فلعله الآن يريد أن يصنعني ! حتى بعد الموت سأبقى جزءًا من المكان ، أهز الأرض أو تهزني لا فرق !

حين يصبح المكان هو الخطر ، هو العدو ، فأنت لا تملك خيارًا حقيقيًا ، وكل الأعداء السابقين ، وكل المخاوف السابقة لم تكن سوى أوهام على طريق حياة لم تلح لك حقيقتها المخيفة سوى الآن ! ؟

متى بدأت أدرك أنني أصبحت في الشارع ؟ وأن العمارات المجاورة تقذف بسكانها في الشارع نفسه ، المقذوفون في الطريق يتبادلون نظرات غير مبصرة ، يديرون رءوسهم في كل اتجاه قبل أن يكتشفوا لذهولهم أن الأرض لم تعد تهتز ، وأن العمائر لم تسقط بعد ، وأنهم لا يزالون على قيد الحياة ، حتى بعد أن تم لهم ولي هذا الاكتشاف العظيم ، بعد أن أصبح البعض قادرًا على أن يرسل ضحكات عصبية ، أو أن ينفجر باكيا ، كان يترسب في داخلي إحساس عميق بأن الإنسان الذي عاش هذه اللحظات لا يمكن أن يعود أبدا ذلك الإنسان الذي كان قبلها . . ! فقبل هذه اللحظات كانت هذه الأرض ، واحدة من أشياء قليلة يمكن الوثوق بها ، أما الآن فكيف يمكن لمن عاش هذه اللحظات أن يطمئن أو أن يثق ؟ وقد رأى بعينيه كيف يمكن للأم أن تقتل أبناءها حبا أو خوفا أو حماقة !□

أبو المعاطي أبو النجا